دولة آل عثمان

٣

ذكرنا في الجزء الماضي طرفاً من وصف بلاد السلطان محمد اوزبك خان ومجالسهِ نقلاً عن رحلة ابن بطوطة وقد رأينا الآن ان نتم الوصف لما فيهِ من الفكاهة والفائدة قبل العود الى الكلام على سلاطين آل عثمان اظهاراً لحال البلاد في ايامهم

قال في وصف ابنة السلطان " توجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة اميال من محلّة والدها فامرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقراء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنتهُ زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتلٌ بالنقرس وهذه العلّة فاشية في هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الاخلاق ما لم نرَهُ من سواها واجزلت الاحسان وافضلت جزاها الله خيراً "

وزار بلاد البلغار في شهر رمضان لتحقيق مسألة علميّة وهي قصر النهار فيها ثم عاد الى محلة السلطان اوزبك وحضر صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة قال " ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكرهِ العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هي الملكة على الحقيقة ورثت الملك من امها وركب اولاد السلطان كل واحد في عسكرهِ وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي ومعهُ جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين النوامي والشريف ابن عبد الحميد . وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تينك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب احسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمّى عندهم الكشك فجلس فيهِ ومعهُ خواتينهُ ونصب برج ثانٍ دونهُ فجلس فيهِ ولي عهدهِ وابنتهُ صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينهِ وشمالهِ فيهما ابناء السلطان واقاربهُ ونصبت الكراسي للامراء وابناء الملوك "

واسهب في وصف مجالسهم وموائدهم وقال انهم يأكلون لحم الخيل ولحم الضأن ويشربون نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون شرب النبيذ . ثم وصف ذهابهُ مع الخاتون ببلون الى ابيها ملك القسطنطينية وسماهُ تكفور وهذا خطأ لان الملك الذي كان مالكاً حينئذٍ هو

اندرونيكس الثالث الذي جلس على سرير الملك من سنة ١٣٢٨ الى سنة ١٣٤١ ومما يكن من سبب هذا الخطإ فوصفهُ للقسطنطينيَّة واهلها في ذلك العصر لا يخلو من فائدة تاريخيَّة ولذلك اقتطفنا منهُ ما يلي قال

سافرنا في العاشر من شوال (سنة ١٣٣٣ للميلاد او سنة ٧٣٣ للهجرة) في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها برحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره . وكان عسكر الخاتون نحو خمسماية فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مئتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مئتين اكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو اربعمائة عربة ونحو اثني فرس لجرها والركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومئتين من الجمال لجرها . وكان معها من الثيران الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمَّى بنبل الهندي وقائد الروميين يسمَّى بيخائيل ويقول له الاتراك لؤلوها وهو من الشجعان الكبار

واسهب في وصف ما لقوا في طريقهم من الحفاوة والاكرام الى ان صاروا على عشرة اميال من القسطنطينيَّة قال فلما كان الغد خرج اهلها من رجال ونساء وصبيان وركبانًا ومشاة في احسن زي واجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجتهُ ام هذه الخاتون وارباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحملهُ جملة من الفرسان ورجال بايديهم عصي طوال في اعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي ولما اقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر التجاج ولم اقدر على الدخول وكان دخولنا عند الزوال او بعدهُ الى القسطنطينية العظمى

ثم وصف مشولهُ بين يدي سلطان القسطنطينية فقال ان اسمهُ تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وابوهُ السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنهُ تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسنذكرهُ وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينيَّة بعثت الي الخاتون التي بنبل الهندي فاخذ بيدي وادخلني الى القصر فجزنا اربعة ابواب في كل باب سقائف بها رجال واسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركني التي بنبل ودخل ثم أتى ومعهُ اربعة ثيران من الروميين فتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك

عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص او عام غريب او بلدي وكذلك الفعل بارض المنشر ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فاخذ بيدي وفتح الباب واحاط بي اربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي فدخلوا بي الى مشور كبير حيطانهُ بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفي وسطهِ ساقية ماء ومن جنبتيها الاشجار والناس واقفون يميناً و يساراً سكوتاً لا يتكلم احد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني اولئك الاربعة اليهم فاسكوا بثيابي كما فعل الآخرون واشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان احدهم يهودياً فقال لي بالعربي لا تخف لكذا عادتهم بان يفعلوا بالوارد وانا الترجمان واصلي من بلاد الشام فسألتهُ كيف اسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريرهِ وزوجتهُ ام هذه الخاتون بين يديهِ واسفل السرير الخاتون واخوتها وعن يمينهِ ستة رجال وعن يسارهِ اربعة وكلهم بالسلاح فاشار اليَّ قبل السلام والوصول اليهِ بالجلوس هنيهة ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليهِ فسلمت عليهِ واشار اليَّ ان اجلس فلم افعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القيامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليهِ السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبتهُ عن ذلك كلهِ واليهودي يترجم بيني وبينهُ فاعجبهُ كلامي وقال لاولادهِ اكرموا هذا الرجل وامنوهُ ثم خلع عليَّ خلعة وامر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة مثل التي يجعلها الملك فوق رأسهِ وهي علامة الامان وطلبت منهُ ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى اشاهد عجائبها وغرائبها واذكرها في بلادي فعين لي ذلك .ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسهُ يطاف بهِ في أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراهُ الناس واكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أويزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

وبعد ان وصف القسطنطينية وكنيسة ايا صوفيا ذكر لقاءهُ لابي الملك فقال

وهذا الملك ولّى الملك لابنهِ وانقطع للعبادة وبنى ساستاراً (ديراً) خارج المدينة على ساحلها وكنت يوماً مع الرومي المعين للركوب معي فاذا ببنا الملك ماشياً على قدميهِ وعليهِ المسوح وعلى رأسهِ قلنسوة لبد ولهُ لحية بيضاء طويلة ووجههُ حسن عليهِ اثر العبادة وخلفهُ وامامهُ جماعة من الرهبان وبيدهِ هكاز وفي عنقهِ سبحة فلما رآهُ الرومي نزل وقال لي انزل لهذا والد الملك فلما سلم عليهِ الرومي سألهُ عني ثم وقف و بعث اليَّ فجئت اليهِ فاخذ بيدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا الذي اكنو بهِ ان يسلم انا اصافح اليد التي دخلت

بيت المقدس والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم اخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفاً ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم ارسل يدي فقلت له اريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنه الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم اره بعدها

فهذه صورة مجملة لحال بلاد الروم لما ابتدأت دولة آل عثمان ولاختلاط الترك بالروم فيها ولاحترام الجميع من كان يأتيهم من العرب فيزلونه الامامة والقضاء ويتبركون به

ولما توفي السلطان أرخان خلفه ابنه الصغير السلطان مراد الاول وعبر الدردنيل سنة ١٣٦٠ واستولى على مدينة ادرنه في السنة التالية وكانت الثانية في مملكة الروم ثم نقل اليها سرير الملك بعد ان تغلب على الصرب والمجر والفلاخ وبقيت عاصمة آل عثمان من سنة ١٣٦٦ الى سنة ١٤٥٣ . وولى قائدا جنوده لالاشاهين واوربنوس الزحف في وادي نهر مارتزا فدوّخا البلاد وفتحا المدن والقلاع وغنما منها غنائم وافرة . واستولى لالاشاهين على مدينة فيلبي سنة ١٣٦٣ وكانت في يد البلغار منذ سنة ١٣٤٤ فحصنها السلطان مراد وجعلها قاعدة غزواته

ولم تستطع تلك الممالك الصغيرة ان تقف على العثمانيين وتمنع تقدمهم في بلادها ولا كان عندها جيش عامل منظم تعتمد عليه وكان الخلاف قد استحكم بين الامبراطور يوحنا السادس امبراطور القسطنطينية وابنه اندرونيكس فمضى الى مدينة افنيون بفرنسا (وكانت كرسي البابوات من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧) لعله يقنع البابا باثارة الامم النصرانية لمقاومة سيل العثمانيين الجارف وعاد معه البابا اربانوس الخامس الى رومية حيث التقيا بالامبراطور كارلس الرابع وملكة نابلي وملك قبرس وبطرس الاول صاحب لوزيان وكانوا ينتظرون قدوم اسطفانوس ملك البوسنه . ولكن سعي الامبراطور يوحنا لم يجدِ نفعاً وكان شأنه قد انحط الى درجة ان تجار البندقية الذين قرضوه الاموال لحقته سفنهم الى افنيون قبضوا عليه وهو راجع وحبسوه في البندقية الى ان يوفي ما عليه ولم يشأ ابنه اندرونيكس ان يوفي عنه هذا الدين لانه لجأ الى البابا وانضم الى الكنيسة الرومانية واخيراً اوفى الدين

عنهُ ابنهُ الثاني مانوئيل . فلما عاد الى القسطنطينيَّة حرم ابنهُ اندرونيكس من الملك بعدهُ فمضى والتجأ الى صاووجي بن السلطان مراد وكان هذا ايضاً خارجاً على ابيهِ وقبض السلطان مراد على الاثنين فقتل ابنهُ وسمل عيني اندرونيكس لكن اندرونيكس لم يكفَّ عن مناوأة ابيهِ فلجأ الى اهالي جنوى وبمساعدتهم استولى على القسطنطينيَّة وخلع اباهُ وحبسهُ وجلس مكانهُ باسم اندرونيكس الرابع وذلك سنة ١٣٧٦ . وافلت الامبراطور يوحنا من سجن ابنهِ ولجأ الى السلطان مراد فردَّهُ الى عاصمتهِ ثم تصالح مع ابنهِ بعد سنتين لكنهُ خلعهُ من ولاية العهد واعطاها لابنهِ الثاني منوئيل اي ان مملكة الروم كانت حينئذٍ على حافة الخراب وليس عند امبراطورها مال يفي بنفقات سفرهِ الى فرنسا فيستدين من تجار البندقية ثم يحبس في الدين . واذا هرب من ابنهِ لجأ الى سلطان العثمانيين . وكل ما قالهُ ابن بطوطة عن عظمتهِ مبالغ فيهِ جدًّا

وتقدم السلطان مراد في غزواتهِ غرباً الى مضائق البلقان ثم دار جنوباً الى تساليا ووصل الى ترمويلي واستعان بهِ روجر حاكم اتيكا على صاحب اثينا فوجه جنودهُ الى طيبة عاصمة اثينا فخاف منهُ امراء البلاد المجاورة . وامر البابا اربانوس اهالي البندقية وكل الاساقفة والمطارنة ان يستعدوا لطوارق الحدثان وانهض همة ملوك المجر والسرب والبوسنه والفلاخ لمقاومة العثمانيين فجمعوا رجالهم وزحفوا الى ان صاروا على يومين من ادرنه لكن العثمانيين يتوهم ليلة السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٧١ ومزقوا شملهم ولا يزال ذلك المكان مسمًّى بما معناهُ اندحار السرب وهذه اول واقعة حارب فيها المجر العثمانيين

وعقب ذلك سنةٌ خمدت فيها نيران الحرب حتى تمكن السلطان المراد من مواصلة فتوحهِ في اسيا وزوَّج ابنهُ بايازيد بابنة يعقوب خان صاحب قرمان وكان في صدافها مدينة كوتاهيه وغيرها من بلاد السلاجقة . وبعد ذلك وصلت جنودهُ الى حدود بلاد الارناؤوط واستولت على مونستير واستب ووصلت من جهة اخرى الى صوفية وحاصرتها وفتحتها وذلك سنة ١٣٨٣ وهي مفتاح البلغار ومكدونية وتراقية

واخيرًا اجتمع على السلطان مراد السرب والبوسنه والفلاخ والبلغار الذين نجوا بعد خراب بلادهم وكثيرون من الارناؤوط والتقى بهِ احد جنود السرب وهو في ساحة القتال وطعنهُ بخنجر طعنة كانت القاضية وكان ذلك سنة ١٣٨٩ لكن رجالهُ قبضوا على ملك السرب وكثيرين من فرسانهِ وذبحوهم فوقهُ انتقاماً لهُ منهم وخلفهُ ابنهُ السلطان بايازيد فدفنهُ في جامعهِ الذي بناهُ في برصى وقتل اخاهُ يعقوب لكي لا ينازعهُ في الملك